التعبير الروائي في سورية عن الطائفية

نبيل سليمان

I ـ مقدمة

من نحلة جبل الكرمل إلى نحلة آروم إلى النحلة الرائيلية، تَرجَّعَ الصخبُ الطائفيُّ من أمريكا إلى اليابان وأوروبا في فجر الألفية الثالثة وفي الحين نفسه تواصَلَ الصخبُ الطائفيُّ في لبنان، وتفجَّر في اليمن والعراق ومصر، ولا يخفى مَورانُه في سورية والبحرين والكويت والسعودية والسودان، وكلُّ ذلك باشتباكٍ مع السياسي

إزاء ذلك يَبْرز السؤالُ عمّا إذا كان عصرُ العولمة يعني «الإفاقةَ الطائفيةَ» من بين علامات التفتيت الأخرى، في الوقت الذي يَصْخب فيه القولُ باندماج العالم وتوحيدِه في قريةٍ صغيرة ومهما يكن لذلك من أسباب، فإنَّ السؤال يمضي في الفضاء العربي إلى عراقة الانشقاق الديني ـ بدرجةٍ أدنى بين الإسلام والمسيحية واليهودية، وبدرجةٍ أعلى بين المذاهب الإسلامية: الشيعي والعلوي والإسماعيلي والدرزي واليزيدي

عَبْرَ تاريخ هذا التشظّي ظَلَّ الإسلامُ السُّنّي يعني الأصلَ الذي خَرَجَ عليه مَنْ خَرَجَ وعَبْرَ هذا التاريخ تسيّستْ (وتمأسست) الشظيةُ أو المذهبُ أو الطائفة، وصار لها سماتٌ سوسيولوجيةٌ ودينيةٌ ولغويةٌ شتّى (الزواج، العبادة، اللهجة، الأعياد، الغناء .) وقد كان لهذا كلِّه حضورٌ روائيٌّ ما ـ بما يعنيه ذلك من نكهة الزمن الروائي، وتبيئةِ المكان الروائي، وتشكيلِ الشخصية الروائية. ولسوف يسعى هذا البحثُ إلى تقرّي ذلك في الرواية السورية، ولكنْ بالضبط حيث اشتَبَكَ كلُّ ما تقدَّمَ من الطائفية بالسياسي.

II ـ الدروز روائياً

يكاد «الكتاب» أن يكون العلامةَ الكبرى لحضور المذهب الدرزي في روايتيْ ممدوح عزّام، **قصر المطر**[1] و**أرض الكلام**[2] فمنذ بداية الرواية الأولى، تأتي موعظةٌ طويلةٌ من الشيخ شمس الدين إلى كنج الحمدان، هي مقتطفٌ من **كتاب الحكمة** يروي لقاءَ ذي القرنيْن بموحِّدين دروز. ويشتبك مفهومُ «الكتاب» بمفهوم «الرسالة» كما رَشَحا من التراث العربي الإسلامي: وها هو الشيخ شمس الدين يَكتب الرسالةَ الأولى من كتاب **الرسائل الجديدة** الذي ابتدأ بنَسْخه، مبهورًا بعظمةِ المعاني.

تتعزّز قداسةُ الكتاب والرسالة إذ يتأمّل الشيخ شمس الدين الحروفَ السوداءَ تتقلّب وسط الصفحةساميةً بارقةً، تَقْذف على البياض خصبًا شبيهًا بحقلِ ذُرَة. أما الحروف الحمراء فقد جعلتْ تجوب المكانَ بجناحيْ باشق ثمة، إذن، «معانٍ أرضيةٌ، وغطرساتٌ بشريةٌ في الثنايا المقدّسة لهذا الكتاب الباسل، كانت تجعله يتهيَّب نَسْخَه، رغم أنه فعل ذلك مئات المرات.» وقد ظلّ الشيخُ طوال الأسبوع الذي أَطْبق فيه الضبابُ على الفضاء يخشى الدخولَ في مملكة الحكمة وينتظر الصحوَ لكنه لم يكن يظنّ أنّ السطر الأوّل من «رسالة التحذير والتنبيه» سيكون عنوانًا لذلك النهار وما يليه ـ والسطرُ هو: «ستَكْثر فيكم البلايا والامتحاناتُ»: إنها النبوءة التي تليق بالكتاب المقدّس بما سيلي في السويداء والمنارة وأم الجرابيع وسائرِ الفضاء الروائي في جبل العرب (أيْ جبل الدروز أو جبل حوران) بعد الاحتلال الفرنسي واندلاعِ الثورة السورية الكبرى ضده في عشرينيات القرن الماضي

حين جاء الشيخ شمس الدين إلى قرية المنارة ظنّ الناسُ أنه مجردُ ضوءٍ لفرط بياضه وشفافيته. وبينما كان الرجال يتباهَوْن بخيولهم، اكتفى هو بالأتان، واحتفظ بالسيف معلنًا تمسُّكَه بالمعدن الربّاني، ورَفَضَ الزواجَ متعزِّيًا بنَسْخ الكتب «الذي ملأ حياتَه باختراقات الألوان الرمّانية المشرقة، وصفاءِ الخطوط السوداء الكريمة، وخضرةِ الزخرفات والأدعية المنمنمة في كتب الحكمة.»

١ ـ وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٨

٢ ـ دار المدى، دمشق ٢٠٠٥

جرَت «قصرُ المطر» على ممدوح عزّام من الغضب الطائفي ما أهدر دَمَه، وسُحِبتْ من السُّوق.

تنضفر مع هالة الشيخ والكتاب هالةُ الشِّعْر والرسم: الأولى في شخصية الشاعر الجوّال فضل الله، والثانية في شخصية هايل. وقد كانت البدايةُ بقدوم الشاعر إلى قرية أم الجرابيع حاملاً ربابةً وقوسًا وأشعارًا وسِيَرًا وملاحمَ وقصصًا خرافيةً وحكايات وبلقاء الشاعر والفنّان قُدِحت الشرارةُ، فكلّف الشيخُ شمس الدين الفنانَ بزخرفة عنوانات خمسةِ كتبٍ مقدّسة ثم أنجز الفنّانُ في غياب الشاعر زخرفةَ بعض عنواناتِ كتابٍ جديدٍ للشيخ، وعزم على الرحيل لكنّ الشاعر عاد يحمل نسخةً من التغريبة اشتراها من الشام لهايل، وطلب منه أن يرسم، فأمضى هذا سبعةَ أيام يقرأ، ثم ستةَ أشهر يَرْسم أبطالَ التغريبة على الورق الأسمرِ الشهير الذي خُصِّصَ لنَسْخ الكتب المقدسة وغفر الشيخ شمس الدين للفنان ذلك «حين رأى أنّ الألوان العظيمة التي أراد بها مرضاةَ الله قد صَنعت هذا الوجودَ الإنساني الفذّ.»

أصابت حمّى الرسم الفنانَ والشيخَ، فطلَبَ هذا صورًا للخضْر وليونس لقاءَ الورق المقدّس الذي يقدّمه. وبتلك الصور حَمَى جدرانَ بيته من أرجاس الشياطين الذين كانوا يلاحقونه «وطَرَدَ الضدَّ الصاخب، مخرِّبَ الهواء والرغبات.» وهكذا تلازَمَ الشيخُ والفنان في نَسْخ الكتب المقدسة. لكنّ هايل كان يرسم أيضًا «ما ينطمر في باطنهَ طوالَ لقائه بالآيات العجيبة للحكمة بهذه الطريقة وحدها استطاع تخيّلَ رسومٍ أكثر بهاءً وهوًى للأنبياء والحدود.»

إلى شخصية الشيخ شمس الدين المبنية روائيّاً بامتياز، هوذا أيضًا الشيخ منصور الذي دأب كنج الحمدان على أن يستمع إلى مواعظه الخصيبة في ليالي العزاء، فيملؤها بالقصص المجنّحة الرطيبة للرُّسُل والأنبياء والأولياء الصالحين، دون أن يَغْضب أو يزهد؛ فرائحة الدنيا لم تكن أقلَّ جمالاً لدى الشيخ منصور، وهو ما مال بكنج إليه. فضلاً عن أنّ الشيخ منصور كان يَنْبذ علنًا ترّهاتِ المتديّنين، ويستبدلها بدعوةٍ حارّةٍ إلى الغرق في الزمان والمكان البشريّيْن بدلَ التشهير بتفاهة الحياة وزوالها.

بذهاب كنج إلى دمشق مع خمسة عشر زعيمًا درزيّاً، وبتوقيعهم على وثيقة استقلال الجبل مع الجنرال الفرنسي دي كيه، يبدأ اشتباكُ الديني بالسياسي في الطائفية ولكنج، كما لغيره من

أنا مش طائفي...
بس اليهود بْخَلا.

التعبير الروائي في سورية عن الطائفية

الزعماء، مشيختُه الاجتماعية (العشائرية). وقد استقبلتْه المنارةُ حين عاد من دمشق بحفاوة وكان بناءُ السجن الجديد في المنارة أولَ المراسيم المشيخية التي أمر كنج بها، وهو يتمنّى ألاّ يَدخل الفرنسيون الجبلَ قبل أن يَظْفر بوردة اللجاة وسيدة المنارة. صباح وفي المقابل، هوذا شاهين الخليل يَشْرح لأبناء عمه البنودَ العجيبةَ لاتفاقية الاستقلال، ويَذْكر معركةَ ميسلون (١٩٢٠) ومقاومةَ الفرنسيين، ويبكي. وهوذا أيضًا حَمْوُ شاهين (كامل) لا يَفْهم بنودَ الوثيقة الاستقلالية، ولا يدرك لِمَ يروم كنج الاستقلالَ عن بلادٍ لم يحكمه أحدٌ منها بعد

من المعلوم أنّ الاستعمار الفرنسي ابتدأ عهدُه في سورية بتقسيمها إلى دويْلات، كانت الطائفيةُ علامةَ اثنتيْن منها دولة العلويين ودولة الدروز وقد تابعتْ **قصر المطر** قيامَ الدولة الدرزية والثورةَ ضدَّها بقيادة سلطان باشا الأطرش، الذي تسمِّيه الروايةُ بهاءَ الدين وعُنيت الروايةُ بتعرُّجات هذا المسار في نفوس شخصياتها وفي المجتمع؛ فكنج مثلاً، المناصِرُ للفرنسيين، هو أيضًا مَنْ كَلَّفَ اثنين من رجاله بالمهمة الأكثر سريةً: منع شباب المنارة من التطوّع في الجيش الفرنسي.

لكنّ الشيخ شمس الدين يلعن كنج الحمدان بعد بناء قصر المطر، وبعد زواجه هو من غريبة. وهنا يَحْضر «الكتاب» أيضًا فالشيخ فَلْسَفَ لـ «غريبة» اشتهاءه لها بما استمدّه من كتابٍ وصله مطبوعًا في الريودي جانيرو، هو **كتاب النقط والدوائر**. وقد كلّف شيخ العقل الشيخ شمس الدين بأن يعيد نَسْخَ الكتاب. أما «غريبة» الأميّة فقد أقبلتْ تتأمّل صفحاته الحافلةَ بالدوائر الملوّنة، والشيخ شمس الدين يَشْرح لها النفسَ الناطقةَ وليونةَ الهيولى وقوةَ النور في الدوائر الأكبر، وكذلك دوائر التواضع والجهل والمعصية . وفي حضورٍ آخر للكتاب، يمضي الشيخ شمس الدين وصالح وثنيّة إلى الشيخ إبراهيم لتسمع «ثنيّة» بنفسها ما يقول نجمُها في كتاب **كشف الظنون**. لكنّ الكتاب غدا معلَّقًا بسبب الفساد الذي استشرى. «كل واحد هون صار يسابق الثاني في كسب رضا الكنج، وكل واحد بدّو يخدم الفرنساوية.» وإذا كان الشيخ إبراهيم قد قرأ لثنيّة فصلاً من **كشف الظنون** وصفحاتٍ من كتاب **الجفر**، فقد كان كنج الحمدان يَجْمع وجوهَ المنارة ليُخْبرهم أنّ بهاء الدين يحوم في اللجاة، والكابتن لا يريد أن يرى في المنارة من يتعاون مع ذاك الذي يريد خرابَ الدولة.

أمام ذلك صار الكاتب، القادرُ على اختراق العقول، عاجزًا عن معرفة أحداث الحاضر. وقد كتب أحدُ المشايخ الكبار ـ لا تسمِّيه الرواية ـ رسالةَ تحريمٍ ضد بهاء الدين، لكنّ ثنية تحلم بأنها تَطْرش منزلَها بالكلس محاولةً طردَ لعنة التحريم والشيخ شمس الدين يصاب في غمرة الثورة، ويَحْمل بعد شفائه صفحةً من كتاب **الحكمة** خَطَّ فيها هايل فصلاً من الرسالة الموسومة بـ «كشف الحقائق » وقد فُسِّر شفاءُ الشيخ على أنّه بركةٌ من بركاتِ اتصاله بالحدود ومعرفة أسرار الغيب

نَظَّمَ الفرنسيون فرقةَ البارتيزان لمن تطوّعوا للعمل معهم، وعُرِفَ واحدُهم بالفدائي. لكنّ ما فعله الذيب، الذي غدا أسطورةً في قضّ مضاجع الاستعمار وحلفائه، جَعَلَ أنصارَه يردِّدون أنه أراد أن يبيِّن مَنْ هو الأجدر بأن يحمل صفةَ الفدائي ولئن كانت الرواية قد رسمتْ، من كنج المؤمن بأنّ ما يفعله هو خدمةٌ جليلةٌ لأبناء وطنه، ومن بهاء الدين، لوحةً للتناقضات والتعقيدات الطائفية، فقد تَعَزّز هذا الرسمُ ليغلِّب الانتماءَ الأكبرَ للوطن على الانتماء الأصغر للطائفة، كما في رسالة التهديد التي أرسلها عينُ الزمان إلى كنج، وكما في وقوع حنا البيطار وذوقان في كمين فرنسي، فأُردي الأولُ لأنه مسيحي خائن، وأُردي الثاني لأنه درزي فوضوي سفّاح ومتمرد.

❖ ❖ ❖

أمّا رواية **أرض الكلام** فتتقدّم نحو سنوات الوحدة السورية ـ المصرية (١٩٥٨ ـ ١٩٦١) لتَرْسم، بالفنّ الرفيع الذي كان لرواية **قصر المطر**، صورةً أخرى للطائفية، تتأنّث ـ مثلاً ـ بما تسمِّيه اغتيالَ الشيشكلي عامَ ١٩٥٤ لمئات الأبرياء في جبل الدروز، أو بتحريم الدين (المذهب) لتعدُّد الزواجات، أو بالقضاء المذهبي الذي يَفْصل في الزواج والطلاق لكنّ الصورة تتركّز في

«حمام النسوان» عَرّت الصَّدْع الذي نال الفسيفساء الوطنية منذ قيام إسرائيل، وفات «ثورة المخمل» أنّ اليهود العرب كانوا من عناصر تلك الفسيفساء.

شخصية حليم الزهر والشيخ زرعة، حيث للكتاب حضورُه أيضًا.

ففي كتاب **الجفر** الكبير قسمٌ خاصٌّ بتقلُّبات المناخ، والنبوءةِ باستمرار القحط الذي زلزل الجبلَ. وسيلي كثيرٌ من ذلك مع حليم المتديِّن المتعصِّب والمتعاون مع السلطة، والتابع للشيخ زرعة الغريب الذي يمتنع أنصارُه عن تسريب أوصافه البشرية، مكتفين بالكلام على حضوره الروحاني وثقله الرسولي.

والشيخ زرعة خارجٌ عن حدود تعاليم المذهب. ولذلك لاقى غضبَ مشايخ العقل أكثرَ من مرة، وأعلنوا إبعادَه. لكنه تمكّن من استقطاب عشرات الشبّان المتحمّسين، وأَنْذر بقربِ يوم القيامة؛ فلما كذب نذيرُه، أمعن في الغيبة والتخفّي. وقد تبع حليم شيخَه، فلم يفوِّتْ فرصةً لإنذار الناس بالعقاب الأخروي، ولم يزعزعه كذبُ النذير، بل ملأه بالغضب من انحلال الروابط والمعاهدات التي أقامها بعضُ المذعورين مع الله وأنبيائه بعد نهارٍ من إخلاف الشيخ زرعة لميعاده القيامي

لحليم مكتبةٌ تضمّ عشرات المخطوطات التي أوصى عليها النسّاخين. وهو يعتقد أنّ نفوسًا شيطانيةً قد كَتَبَتْ جميعَ الكتب الدنيوية التي يُقْبل عليها شقيقُه ونقيضُه كريم الشيوعي. وحليم لا يوفِّر المشايخَ البسطاءَ الأميّين وأشباهَ الأميّين، فيتّهمهم بالتزوير الديني بسبب كلمة يقرأونها خطأً، أو بسبب الجهل ـ والجهل «صفةٌ يستصعبها رجلُ الدين لأنها تحمل معانيَ شبهَ تكفيرية.»

يخوض حليم صراعًا وحشيّاً مع أبيه وأخيه وزوجته. وحين تَطْلب الأخيرةُ الطلاقَ، يتشكّك حينًا في شيخه الذي ما كان يَسْمح لواحد من أتباعه بأن يَرْضخ لامرأة. لكنّ شَكَّ حليم يتبدّد، وتَحْصل زوجتُه على الطلاق. وحين يَشْتم أختَه، يغضب منه سايسُ البلد، فيُمْضي أيامًا في الاعتذار. لكنّ السايس وأركانَ المجلس من كبار رجال الدين قرّروا أن يُبعدوا حليمًا من الدين شهرًا. فتحوَّلَ اضطرابُه جرّاءَ ذلك إلى ذعرٍ حين ظنّ أنه سيموت مبعَدًا، وستكون جنازتُه خاليةً من شهادات الرحمة الأرضية التي سيمتنع رجالُ الدين عن قولها فيه إذا مات وهو مبعَد. لذلك نَذَرَ وقتَه لتقديم البراهين على رغبته في الاعتذار عن فواحش اللسان، وعلى طلب الغفران من المرجع الديني لقريته. فأقام في غرفته يقرأ طوال الوقت في كتابٍ مقدَّس ما، مكتفيًا بالقليل من الشراب والطعام. وفي يوم الجمعةً فَرَشَ طرّاحةً أمام باب المجلس، وتابع القراءةَ، فبدا مثلَ متصوِّفٍ طالت لحيتُه السوداء، وارتدى أسمالَ الفقراء محقِّرًا نفسَه، فكسَبَ تعاطُفَ الناس الذي تحوَّل إلى قوة ضاغطة أَوقعت الانقسامَ في صفّ رجال الدين بين مُعارضٍ للتسامح ومؤيّدٍ للعفو السريع «خوفًا من بعض الألسنة التي بدأتْ تَكْشط لحاءَ الحاضر لتَكْشف نخرَ الماضي الخاصّ بأيّ منهم.» ولم يتّفقوا إلاّ بعد عشرة أيام، كان حليم قد قرأ خلالها ـ أمام التجمّعات الصغيرة التي تزوره ـ جميعَ **رسائل حمزة** وكتاب **مواعظ ذي النون المصري** وقسمًا **من شرح الأمر السيد**، فبدا كأنّ قعودَه التكفيري قد تحوَّل إلى «مذهبٍ استقصائيٍّ للدين.»

لقد جَرَّتْ روايةُ **قصر المطر** على ممدوح عزّام، بعد سنواتٍ من صدورها عن وزارة الثقافة، من الغضب الطائفي ما أَهْدر دَمَه. وعلى الرغم من الوقفة المناصرة له، سواءٌ من المثقفين السوريين أو من شخصيات عديدة في جبل الدروز، فقد سُحبتْ طبعةُ الوزارة من السوق. لكنّ ذلك لم يُضعف الكاتبَ أمام الرقيب الاجتماعي، ولم يُثْنِه عن معاينة الواقع في روايته التالية، **أرض الكلام**. ومن ذلك معاينةُ الطائفية في الفضاء الروائي، وفي الزمن الروائي، وبمكنةٍ فنيةٍ تعزَّزتْ من روايةٍ إلى رواية

III ـ اليهود روائيّاً

ظلّ الحضور السلبي اليهودي دومًا في حدودِ ما كان (ولم يزل) يعتور العلاقاتِ الاجتماعيةَ والروحيةَ بين عناصر الفسيفساء الوطنية غير أنّ قيامَ إسرائيل وما أعقبه من الصراع العربي ـ الإسرائيلي كان لهما وقعُ الصَّدع في تلك الفسيفساء. وهذا ما

التعبير الروائي في سورية عن الطائفية

تَرْسمه روايةُ فيصل خرتش، **حمّام النسوان**،[1] منذ مشاهدة الفتى «زاد الله» لعراك المغنية «سلافة» في الحمّام مع العاهرة «عفاف» التي تعيِّر سلافةَ بأصلها اليهودي.

يعرِّف الساردُ بسلافة منذ جدّها الأندلسي لاوي الذي اندسّ في سفينة مُبْحِرة إلى الشرق إثر المذابح التي طَردت العربَ من الأندلس، فوصل إلى بيروت سنة ٨٩٨ م، والتاث جرّاءَ ما عانى، وساح أعوامًا وهو يرى أمامه دينارًا ذهبيّاً يقوده إلى حلب، حيث يشتري بيتًا، ويزوّجه الديّانُ ممّن لم يجدن مَنْ يتصدّق عليهنّ بزواج. وسوف تفصِّل الروايةُ في الزواج اليهودي، وفي كلِّ ما يتصل بالعيش اليهودي ـ ومن ذلك ما تَحْشده من المتناصّات العبرانية. وتطوي الروايةُ الأزمنةَ والسرّادَ بلا فاصل، فتَبْلع مفصلَ ١٩٤٨ وما تلاه وقد كان اليهودي قبيْل ذلك المفْصل قطبةً في النسيج الوطني (على ما يبيِّن مثلاً عشقُ كرمو لسلافة، وتبادُلُ الديّان والأسدي النكات على اليهود). لكنّ قيام إسرائيل جَعَلَ الشبّانَ العربَ يصبّون غضبَهم على العائلات اليهودية في محلّة القلّة، فاحتمت تلك العائلاتُ بالبيوت العربية الحلبية (آل القصّاص والطحّان وقناعة) الذين جاب شبابُها حاراتِ اليهود ليُبْعدوا الزعرانَ عنها، وقالوا للناس: «يهودُنا غيرُ اليهود الذين هَجَموا على فلسطين، يعيشون معنا ونعيش معهم. لم نرَ منهم شيئًا كلَّ عمرنا هؤلاء يهودٌ طيبون غير أولئك، ولا يريدون الأذى لأحد إنّهم مثلُنا، ونحن وهم أهل » وبذا عاد لليهود دورُهم، وجرى التعويضُ الأهلي عمّنْ نُهبتْ بيوتُهم. وقد رَفَعت الروايةُ الإيديولوجيةَ هنا إلى مستوى أعلى عبر الحوار بين الأسدي وشابٍّ متعلّم يعلِّل هجرةَ اليهود إلى فلسطين بما لاقوْه في أوروبا من الاضطهاد، فيردّ الأسدي بأنّ اليهود عندنا «لم يلاقوا الاضطهادَ،» فيعقِّب الشابُّ المتعلّم: «ولكنهم يعيشون في مجتمعات منعزلة ويسيطرون على الاقتصاد،» فيردّ الأسدي ثانيةً بأنّ أغلب اليهود هنا من الفقراء ولا يعيشون في مناطق منعزلة.

مع حرب ١٩٥٦ يتعمّق الصَّدعُ ويتغذّى ممّا هو شائعٌ مَن الأمثال والأهازيج الشعبية التي تعبِّر عما سبقت الإشارةُ إليه ممّا يعتور اللحمةَ الاجتماعيةَ بين الريف والمدينة، وبين الطوائف والحِرَفِ والمذاهب والأُسَر. فنقرأ ما كان يردِّده «الأولادُ السفهاء»: «حاخام بومه بومه/أبو لفّه مبرومه/أعطيني شعرة من دقنكْ/لأخيِّط فيّا التاسومة.» أو نقرأ من الأمثال: «جاء أبو طاقية / جاء البرّام / اتركْ البسطة واهرب منه!»

وعلى إيقاع الصَّدْع، بدأ تهريبُ اليهود من حلب إلى فلسطين، وأوّلُه كان تهريبَ زلفي، شقيق سلافة التي لجأتْ إلى عزرا من أجل ذلك. وعزرا، الذي يؤرِّخ كلَّ ما يخصّ اليهودَ في حلب، يفكِّر بالعربية، ويَكْتب بالعبرية، وسيتساءل بصدد اليهود وإسرائيل مع تفاقم الصَّدع بعد حرب ١٩٦٧: «أمةٌ منتشرةٌ في كلّ أنحاء العالم، هل تستطيع هذه الدولةُ أن تحميَها؟ هل تستطيع هذه الدولةُ أن تستمرّ في هذا المستنقع العربي؟»

بين حربيْ ١٩٥٦ و١٩٦٧ كان تهريبُ اليهود قد نشط، على ما ترسم الروايةُ في شبكة حيمود الغريب وفندق الأكتع وكرمو العاشق وعبد الله النمرود الذي يتاجر بالمخدِّرات أيضًا وقد جَدّدتْ حربُ ١٩٦٧ الهياجَ الذي رأيناه مع حرب ١٩٤٨، فنال يسّاف الضرب، وتخفّى عزرا وسلافة وإذا كان الهدوءُ قد عاد سريعًا، فقد بدأ عزرا المشرفُ على الكنيس ينظِّم تهريبَ الشباب اليهود عبر الحدود التركية إلى السفارة الإسرائيلية في أنقرة، التي تتولّى نقلَهم إلى فلسطين وكان عزرا يُحمِّل كلَّ شابّ ورقةً من نسخة التوراة المخطوطة التي يحتفظ بها في غرفة من الكنيس، وعلى الشابّ أن يوصل الورقةَ إلى الحاخام يوسف بن زليخا في شارع بغداد في تل أبيب. وفي هذا السياق يميل كرمو إلى غير سلافة، بينما تتردَّد هي في مغامرة الهروب. وإذ يهمّ بها عزرا، ويصيبه الشللُ، تَعْتبر نفسَها مسؤولةً عن وصول مخطوطة التوراة إلى الحاخام يوسف.

١ ـ دار المسار، بيروت ١٩٩٩.

تواصَلَ التعبيرُ الروائي عن المفصل الحاسم في تاريخ سورية الحديث، والمتمثِّل في صراع السلطة و«الإخوان.»

فيما تلا، سيتولى النمرودُ متابعةَ التهريب، فيقضي على تجارة فندق الأكتع التي راجت بعد أن قتل عزرا، وبعد ما توحي به الروايةُ من استجابة الحكومة لمطلب الطائفة الموسوية بالسفر خارج القُطْر وبذا غدا طريقُ التهريب أكثرَ أمانًا. أما سلافة فقد فَقَدتْ صوتَها عندما تقدّمتْ للغناء في حفل رُصِدَ ريعُه للعمل الفدائي. وبذا خَتَمت الروايةُ تعريتَها للصَّدْع الذي نال الفسيفساءَ الوطنيةَ منذ قيام إسرائيل، مثلما عَرّتْ عالمَ «حمّام النسوان» متوسلةً السخريةَ والبوليسيةَ والغرائبية.

❖ ❖ ❖

بخلاف هذه الرواية، تُلاعِبُ روايةُ كلاديس مطر، **ثورة المخمل**،[1] استراتيجيةَ اللاتعيين، فتسمّي البلادَ العربيةَ «وادي الرماد» (المسلم) الذي عزَلَ نفسَه بفعل العداء القومي والتعصّب الديني، فقَدِمَ الغزاةُ الذين أدركوا صلةَ الإسلام بالإرث المسيحي اليوناني الروماني «وانتشرت المزاراتُ المقدّسةُ التي يكرّمها النصارى والمسلمون على السواء » بيْد أنّ الوادي انقسم على أساس الملال، وتمكّنتْ سلالةُ صدر الدين باشا من الاستئثار بالسلطة حتى الربع الثالث من القرن العشرين.

يتولّى السارد المسنُّ تقديمَ الشخصيات، وفي رأسها الأب فريد ابنُ جبرائيل (مسيحي) الذي صاغ في شبابه منشوراتٍ ضد السلاطين، وكذلك المستنير عبد الحق السوري بن أحمد بن طانيوس. ثمة، إذن، تزاوجٌ إسلاميّ ـ مسيحيّ. وقد أسند الساردُ لكلّ شخصيةٍ كبرى فصلَها، وبدا الوادي معقلاً أنموذجيّاً للديكتاتورية بعد أن كان يقاوم الجهالةَ في الماضي. وعبر ذلك كان أمثالُ الأب فريد والشيخ مصطفى وأصدقائهما الصغار من الطائفتين المسيحية والإسلامية مدركين لكون الكنيسة قد تطوّرتْ منذ عهد القديس توما، فصارت فسحةُ الحرية أكبرَ، بخلافِ ما كان للمسلمين، الأمرُ الذي دفع ببعضهم إلى أن رأى في الماركسية خلاصًا وها هنا قَدِمَ «قَتَلةُ الصحراء» الذين سَكنوا المناطقَ المتاخمةَ للوادي، وانتظر وُعّاظُهم ورجالُ دينهم فرصةَ الفتك بالوادي وابتلاعه، إلى أن بدأتْ في منتصف الثلاثينات من القرن الماضي الحربُ التي قاد فيها آرون قَتَلةَ الصحراء، سعيًا إلى تحقيق وعد الكتب بأرض الوادي وبينما حَمَلَ الأب فريد والشيخ مصطفى وأتباعُهما المدينةَ على أكتافهم، ودفعوها باتجاه العالم «لأنهم الوحيدون الذين رغم الخطإ يستفيقون،» انقسم سكّانُ الوادي بحسب الانتماء الديني، «وهكذا أخذوا يتعرّفون على معنى التعصّب، وفَتَحت الطائفيةُ فكَّيْها كذئبٍ على وشك الانقضاض »

«قَتَلةُ الصحراء» هم، إذن، اليهود والوادي، بحسب الرواية، لم يكن فيه سوى الإسلام والمسيحية. وببلوغ الصراع مع شعب آرون حربَه الأخيرة، يتكوّم سكّانُ الوادي في أماكن العبادة، كلٌّ بحسب طائفته، يحاولون طردَ الشياطين ويهتفون: «صدر الدين حامينا/وآرون تحت صرامينا.»

وقد تَوَّجت الروايةُ الصراعَ بالصلح بين الباشا وآرون. وبينما يمضي الصلحُ إلى الوحدة بين الصحراء وسكّان الوادي، ينتشر في الوادي المتطرّفون باللحية والخمار، وتتفجّر غيرةُ الباشا على طائفته، وينكمش أناسٌ، كلٌّ على ديانته ولم يخرج على ذلك سوى الشيخ مصطفى والأب فريد اللذيْن أسّسا فرقًا للعمل الاجتماعي الطوعي، وجَنّدا شبيبةَ الوادي من الطائفتين المسيحية والإسلامية حتى إذا أَهَلَّت الوحدةُ مع الصحراويين، أعلن الأب فريد أنّ الصحراويين يريدون السيطرةَ برؤوس أموالهم، وهذا ليس سلامًا ولا تعايشًا، وقال. «لقد تعايشنا نحن والمسلمين بسلام طوال العقود الماضية، وأنشأنا معًا دينَنا الجديدَ المشترك: هذا الوادي! أما مع هؤلاء، فإنهم يبحثون لكي يَقْمعونا ويسيطروا علينا بكل الوسائل.» ويَخْتم الراوي الروايةَ متسائلاً: «إذا كنّا نرى في الصحراويين عدوّاً نموذجيّاً لنا، فما بالُنا نتحدث باللغة نفسها عن أفراد الديانات والمعتقدات الأخرى الذين يشكّلون معنا أبناءَ هذا الوادي؟»

١ ـ دار ورد، دمشق ٢٠٠١

التعبير الروائي في سورية عن الطائفية

لقد مالت استراتيجيةُ اللاتعيين بالرواية إلى التجريد الذي مَصَّ نسغَ الرواية وأحالها هيكلاً من معادلات، وخطابًا إيديولوجيّاً فجّاً فاتَه أنّ اليهودَ العربَ كانوا أحدَ عناصر الفسيفساء الوطنية. وفي ذلك من الأذى ما فيه للتاريخ وللمستقبل.

IV ـ العلويون روائيّاً

من النادر أن يكون للعَلَويّ حضورُه الصريح روائيّاً. وعلى القراءة، من ثم، أن تَكْتب الاسمَ من الحروف التي تُرسلها الروايةُ، وبالحبر الذي تُسيله

ففي رواية حيدر حيدر، **شموس الغجر**،[1] تروي «راوية» أنّ والدَها بدر الدين النبهان نشأ في كنف أبيه الإمام الذي يُفْتي بالناس، ومرجعيتُه هي العتباتُ المقدّسةُ وحنينُ كربلاء وندمُ عاشوراء الدامي. وهنا تمضي الإشارةُ إلى الجذر الديني الإسلامي الشيعي، الذي له مع العَلَوية (والصوفية) نسبٌ وهذا الجذر ينعطف ببدر الدين النبهان إثر اعتقاله أربعة شهور، فيطوي ما كانه قبل ذلك ـ كمتمرّدٍ علماني ـ بالتوبةِ والهدايةِ وإقامة الصلاة ومراسيم الأعياد. وهذا ما يعلّله ماجد زهوان، عاشقُ «راوية،» بعودة الطفل إلى ميراث أبيه، وبالحنين إلى الطوطم الكامن في الأعماق، ويشبِّهه باسترجاعٍ دمويٍّ كأنّه جرثومٌ مستوطِنٌ في الخلايا الخفية والمظلمة للنفس.

هكذا بات بدرُ الدين النبهان يتحدث في أوقات خاصة وسرّية عن مسائل طائفية ومذهبية وظهورات خرافية، لا تعيّنها «راوية» بل تكتفي بنعتها باللامعقولية المستقاةِ من عصور ما قبل العقل، حول التجسيد الإلهي على الأرض. وتتحدّث راوية عن محفلٍ سرّي يَجْمع الشيوخَ في المقرّ الديني لبلدة عيون الريم، وتسمّي المحفلَ بمحفل «التكفير والتوبة.» وتصف ما جرى لأبيها في المحفل، كما ستفيض في ممارسات أبيها: من الأعياد السرية إلى الحلقات الخاصة الغامضة وإذ تمضي هذه الإشاراتُ إلى والد بدر الدين النبهان، فلن يكون عسيرًا على القراءة أن تمضي بالإشارة إلى فرقةٍ باطنيةٍ بعينها، هي العَلَوية فذلك الوالد كان يَخْتم موعظةَ صلاة الجمعة بالدعاء لسيد البلاد، حيث تنادي الإشارة الإمام علي بن أبي طالب «اللهم والِ مَنْ والاه وانصرْ مَنْ نصره . وريث مَنْ دحى باب خيْبر وردَّ الشمسَ عن مغيبها.» أما الابن الذي كان يَسْخر من ذلك كلِّه، فقد أخذ يوغل في هذياناتٍ أدعيةٍ وكتبٍ ومراسلاتٍ خاصة، تصله عن طريق الشيوخ والمشرفين على إرشاد الضالِّ الذي اهتدى، فغدا مبحرًا في الوجد الصوفي وأشعار ابن الفارض والمنتجب والمكزون السنجاري ومعارج **نهج البلاغة**.

تحاول «راوية» تمويهَ الإشارة إلى العَلَوية بالإشارة إلى أحد كتب أبيها السرية الذي يترجّع فيه صوتُ كريشنا. لكنّ الاتكاء يتوالى على مفردات «الظهورات» و«المعنى» و«الجوهر» و«التجلّي» و«المهدي المنتظر،» وتشتبك الإشاراتُ الصوفيةُ بالملّية. وفي تفسيرٍ عنصري، تعزو راوية تحوُّلَ أبيها أو نكوصَه إلى جينات الدم الموروثة، وإلى جرثوم مستوطنٍ في الخلايا وفي الاستنساخ. غير أنها في موقعٍ آخر تُلِحّ على الشرط الاقتصادي السياسي الذي اكتنف استشراءَ ظاهرة الاضطراب الروحي والمسوح الدينية والمذهبية في الأجيال الجديدة إنه القمع والفساد اللذان بعثا جمعياتٍ ومحافلَ سريةً تبشّر بقرب القيامة (لنتذكّرْ هنا الشيخَ زرعة في **أرض الكلام**) وظهورِ المهدي.

❖ ❖ ❖

بدرجةٍ أعلى أو أدنى من التوسّل الفني للإشارة في **شموس الغجر**، توالى التعبيرُ الروائي عن المفصل الحاسم في تاريخ سورية الحديث، والمتمثِّل في الصراع المسلح بين السلطة والإخوان المسلمين في نهاية سبعينيات القرن الماضي ومطلع ثمانينياته، وهو الصراع الذي تلبَّس بالطائفية في مقدِّماته وفي مجرياته وفي عقابيله، وعَرَفَ من الديماغوجية والشعبوية ما عَرَفَ، وتركّزتِ الإشارةُ فيه إلى العَلَوي والسُّني

١ ـ دار ورد، دمشق ١٩٩٧

«مديح الكراهية» هي ملحمة صراع السلطة / الإخوان، الذي لا يحصّن البلادَ ضدَ عقابيله سوى الديموقراطية.

لأسباب شتّى ظلّ ذلك الصراع مسكوتًا عنه في الرواية وقد تكون التقيّةُ في رأس تلك الأسباب، وقد يكون الارتباكُ في النظر أو التنزُّهُ عن «وسخ» المسألة. وعلى أية حال، فقد سبقت الروائيةُ الروائيَّ إلى الكتابة عن ذلك الصراع، وسبقت الأصواتُ الجديدةُ سلفَها. أما البداية فجاءت محدودةً وحييَّة، تشير إلى تفجير حافلات الركّاب بين دمشق والساحل في رواية محمد كامل الخطيب، **أجمل السنوات**؛[١] أو تشير إلى السجينات الأصوليات (الإسلاميات) وما كان بينهنّ وبين السجينات السياسيات اليساريات، وذلك في رواية حسيبة عبد الرحمن، **الشرنقة**؛[٢] وكذلك هو الأمر في رواية أنيسة عبود، **باب الحيرة**،[٣] حيث الإشارةُ إلى مجزرة مدرسة المدفعية.

مع الرواية الأولى لمنهل السرّاج، **كما ينبغي لنهر**[٤] تأتي التجربةُ الأولى في التعبير الروائي عن صراع السلطة والإسلام السياسي المسلّح، وفي بؤرته الأكثر سخونة: مدينة حماة إلاّ أن منهل السراج راهنتْ على استراتيجية اللاتعيين لتَرْسم بتألّقٍ مدمّى الصراعَ بين أبي شامة ونذير (الإسلامي) على صدر المدينة. وإذا برأسَي الصراع وجهان لعملةٍ واحدة، وإنْ يكن أبو شامة قد انتصر، بينما مضى نذير إلى مواقع المعارضة الإسلامية في العواصم الغربية وبخلاف ذلك، جاء التعيينُ في الرواية الأولى لروزا حسن، **أبنوس**،[٥] وهي الرواية الفائزة بجائزة حنا مينة للإصدار الأول والتي نظّمتْها وزارةُ الثقافة السورية (علمًا أنّ روايةَ السرّاج فازت هي أيضًا بجائزة الإصدار الأول التي تنظّمها وزارةُ الثقافة في الشارقة). الجدير بالذكر أنّ الوزارة السورية حَذفتْ من الرواية اسمَ مدينة اللاذقية في بعض المواضع، وعددًا من المقاطع المتعلّقة بالحرام الجنسي ـ وهذا ما تُثْبته الورقةُ التي أرفقتْها الكاتبةُ مع نُسخها.

باختيار النهج الكلاسيكي، وبالنصاعة التي تحقَّقَ بها ذلك، تبدو مفاجأةُ رواية **أبنوس** بتغريدها خارج ما هو غالبٌ على جيل الكاتبة ومن تجلّيات ذلك ما يتعلّق بالشيخ «أبو إبراهيم» في صلواته الباطنية، وكُتُبه العتيقة، ومريديه الذين يعلّمهم علومَ الدين السرية، وهو الذي زَيَّنَ غرفتَه بصور أجداده وبصور سيف الإمام علي بن أبي طالب وأسماءِ الأئمّة الاثنيْ عشرية وقد قَدِمَ الرجلُ من القرية التي تحتفل بعيد القوزلّة وعيدِ الفراش ـ وهما من أعياد الطائفة العلوية ـ ليقيم في حارةٍ أغلبُها من «الطائفة المغايرة» التي لا تسمّيها الرواية ـ وهي الطائفة السُّنية ـ كما لا تسمّي الطائفةَ العلوية

كان الشيخ أبو إبراهيم دؤوبًا على الجهر بأنّ التجمّعات الطائفية، كالمستعمَرات المنبوذة أو كمزارع الحيوانات، لا تولِّد إلا الجهلَ وضيقَ الأفق. ولذلك طفق يردّد أمام مريديه «أُحِبُّ الحرية » وهو لم يَقْطن في تجمّعٍ طائفي أو حارةٍ طائفية، بل اختار حيَّ الشيخ ضاهر السُّنّي في مركز المدينة وعلى الرغم من أنّ أوثق العرى تربطه بشيوخ «الطائفة المغايرة» الذين حاولوا ثنيَه عن الرحيل إلى القرية، فقد رحل بعدما توالت الاغتيالاتُ لشيوخ العلويين في المدينة، في حمأة الصراع بين الإخوان المسلمين والسلطة.

بعد **أبنوس**، جاءت روايةُ خالد خليفة، **مديح الكراهية**،[٦] لـ «تبقّ البحصةَ» وتُوقِفَ جُلَّ قولِها على ذلك الصراع. لكنّ

١ ـ دار ٢١، دمشق ١٩٩٩
٢ ـ دون ناشر، ١٩٩٩
٣ ـ دار كنعان، دمشق ٢٠٠٢
٤ ـ الدائرة الثقافية، الشارقة ٢٠٠٣
٥ ـ وزارة الثقافة، دمشق ٢٠٠٣
٦ ـ دار أميسا، دمشق ٢٠٠٦

التعبير الروائي في سورية عن الطائفية

روايتيْ سمر يزبك، **طفلة السماء**[1] و**صلصال**،[2] كان لهما قبل ذلك قولٌ آخرُ في الطائفية، وكان أقلُّه في الرواية الأولى ـ وهي باكورةُ الكاتبة. وقد تمحورتْ **طفلةُ السماء** حول راويتها «نور» المنحدرة من قرية متاخمةٍ للاّذقية، ومن أمٍّ مسيحية خالَفَ من أجلها الأبُ أباه الإقطاعيَّ، فتزوَّجها وهرب بها إلى أوروبا حينًا، ثم عاد ليَصْعدَ نجمُه، وليخسرَ أحلامَه بعد حين، فيُسجن وتُصادر أملاكُه جرّاء الخلاف مع ضابطٍ كبير. وإذا كانت نور تشير إلى التعاليم السرية لطائفة الأب، فهي تَقْرن بعضَها إلى نظيره في المسيحية، كالنظر إلى الأنوثة على أنها تجسيدٌ أرضيٌّ لأرواحٍ مذكّرةٍ عاقبها اللهُ بمسخها أنثى، فإنْ أذنبتْ فقد تتحول إلى حيوان أو حشرة. وهذه الإشارة إلى التقمّص كواحد من المعتقدات العلوية تتلامح في روايتيْ أنيسة عبود، **باب الحيرة** و**النعنع البري**،[3] شأنها في روايتيْ ممدوح عزام؛ فالتقمص معتقدٌ درزيٌّ وعلوي، لكنه في رواية سمر يزبك **صلصال** سيغدو فعلاً حاسمًا كما سنرى.

تتمحور **صلصال** حول الضابطيْن علي حسن وحيدر إبراهيم، وتبدأ بلحظة موت الثاني وبلوغ الأول أوجَه، ثم تَشْرع باستعادة نشأتهما في قريةٍ من ريف مدينة جبلة وهذه الاستعادة تمضي أبعدَ لتَرْسم ما كان عليه الأمرُ في جبل العلويين وساحله، وفي ما انحصر بينهما من الريف العَلَوي أيضًا، حيث كان الناس يخشَوْن النزولَ إلى المدن، مسكونين بـ «أزمنة نداء الدماء والصور السوداء التي لم تفارقْ مخيلتَهم، قبل مئات السنوات عندما كانوا سعداءَ بوحدتهم وجبالهم التي زرعوها بالأطفال، والجوع، والقسوة؛ الجبال التي كانت المكانَ الوحيدَ الذي يُبْعدهم عن أيدي رجال السلطة العثمانية » غير أنّ التطورات التي رافقتْ مطلعَ القرن العشرين أتاحت لأولئك الناس تغييرَ حياتهم: فقد أقام الفرنسيون الدولةَ العَلَوية، وأعطوا «الزعماءَ بعضَ النفوذ. وهكذا تجاوز الأهالي الخوفَ بعضَ الشيء، وانخرطوا أكثرَ في حياة المدينة.» والأهم هنا هو ما تعجل إليه الروايةُ بلعبة الاستباق؛ فإذا بالنسيان الذي كان «الجميعُ» يحاولونه يتقوّض، ويعود «الجميع» إلى تلك الذكريات في سنواتٍ طويلةٍ قادمة.

في ذلك الماضي كان والد حيدر (إبراهيم بك) يتعاون مع الفرنسيين ضد الثوّار، فأهدوه أراضيَ سيعيدها إلى فقراء الفلاّحين حين يكون عليه أن يطوي صفحةَ ذلك الماضي. وقد بنى إبراهيم بك قصرَه فوق تلّ سيانو، فحلّتْ عليه لعنةُ التلّ الأثري الشهير التي ترمي مَنْ يسكنه بالجنون أو بانقطاع النسل وها هم أبناءُ إبراهيم بك يقضون، فلا ينجو منهم إلاّ حيدر

عندما انتهى إبراهيم بك من بناء قصره في عشرينات القرن الماضي، دعا الأغوات ورجالَ الدين والمشايخَ من اللاذقية وجبلة وطرطوس وبانياس حتى حمص وحماة، ويقال «إنّ ذلك الاجتماع جعلهم، بعد ذلك بسنوات، يطالبون الجنرالَ الفرنسي بإقامة دولتهم الخاصة بهم.»

منذ الطفولة وَحَّدت الصداقةُ بين ابن البك (حيدر) وابن الفلاّح (علي)، إلى أن أفضت بهما السبيلُ إلى الكلّية العسكرية قرابةَ منتصف القرن الماضي، فكانا «من قلّةٍ قليلةٍ من أبناء الساحل السوري الذين أرادوا في ذلك الزمن أن يصبحوا ضبّاطًا » أما أغلبُ طلبة الكليّة، فكانوا من مدينتيْ دمشق وحلب ومن أبناء العائلات البورجوازية التي أرادت الاعتمادَ على هؤلاء الأبناء في تأسيس أرستقراطية عسكرية بعد الاستقلال. وقد يكون مطرحُ هنا للسؤال عن الطائفية في الإضمار الروائي

لم يشعرْ علي حسن بالدونية في الكليّة، وقد جعلتْ منه ممازحاتُه وذكاؤه السريع نجمًا. لكنّ الآخرين لم يَفْهموا شرودَ

١ ـ دار الكنوز الأدبية، بيروت ٢٠٠٢

٢ ـ دار الكنوز الأدبية، بيروت ٢٠٠٥

٣ ـ دار الحوار، اللاذقية ١٩٩٧

الروايات السورية المعنيّة بالحرب اللبنانية اختارت غالباً أن يكون العاشقان مسيحياً ومسلمةً أو العكس، وأن ينتصرا على المعوّق الطائفي.

حيدر القادم من المدرسة الداخلية والتربية المسيحية فيها، والمثقف الحالم. ولم يكن لحيدر بمثل هذا التكوين أن يتابع مشوار الضابط. لذلك سيستقيل في ١٩٧١/٣/١٠ (هل من إشارةٍ هنا إلى تاريخ انتخاب الرئيس الراحل حافظ الأسد في المرة الأولى؟)، بينما كان الناس مشغولين عن كل شيء بقيادة الحكم الجديد.

عاد حيدر إذن فارسًا مهزومًا، فكانت عودتُه نهزةَ الرواية لتصوِّر خوفَ الناس من القادم إثر هزيمة ١٩٦٧ وموتِ عبد الناصر والغاراتِ الجوية الإسرائيلية على الحدود «والأمر الذي لم يخطرْ على بالِ واحد منهم هو أن تستمرّ الأمورُ على ما هي عليه لعقود طويلة قادمة، وأن يُثْبت هؤلاء الضبّاطُ ـ الذين انقسموا فيما بينهم أثناء مؤتمرات حزبهم الحاكم التي سبقت اختلافَهم ـ أنّ باستطاعتهم حكمَ البلاد، وإقصاءَ كلِّ مَنْ خالفهم، وإبعادَ شبح الانقلابات. مع ذلك، كانت المصائب والأزمات التي اجتاحت البلاد تمرّ بصمت، كما هي الحال في السنوات الطويلة التي مرّت على الناس، والتي يَذْكرها أهالي القرية تمامًا، حتى وإنْ كانت ذاكرتُهم يشوبها الكثيرُ من القلق والتحريف، بعد أن توهّموا خلاصَهم من عذاباتهم. وما حدث لاحقًا جعلهم يتأكدون أنْ لا أحد سينجو من القادم.» وفي استباقٍ آخر ووقفةٍ تلخيصيةٍ أخرى، تشخّص الروايةُ هذا القادمَ بإثراءِ المقرَّبين من السلطة، وبالعجز عن إيقاف النهب والسلب، «وكان طبيعيّاً أن يأتي بعد ذلك ما يَزْرع الخوفَ القديمَ ذاتَه في نفوس الناس. اندلعتْ حرائقُ، وشقاقاتٌ، واغتيالاتٌ جماعية، وتصفياتٌ جسدية، وحملاتُ اعتقال، وحصارُ مدن، وقصفُ أحياءٍ آهلةٍ بالسكان وبدا أنّ النعرات الطائفية والمذهبية والعشائرية تستفيق من سباتها. وتسلّلَ رويدًا إلى مظاهر الفقر والحاجة كمُّ الأفواه، إلى جانب الخشية العميقة من يوم الغد الغامض. وصارت النجاة عند الناس مرهونةً إمّا بالصمت المطلق وغضّ النظر، وإمّا بالدخول في لعبة البقاء وأيُّ خيار كان سيودي بالواحد منهم إلى مكانٍ لا تَعْرفه فيه سوى الشياطين.»

عاش حيدر ما بين عودتِه إلى القرية وموتِه معتزلاً في القصر والصيد والقراءة وكتابة يومياته، ترعاه عاشقتُه القديمةُ الفلاّحة ومن الناس مَنْ فسّر عزلةَ حيدر بأنها إقامةٌ جبرية لأنّ رئيس البلاد غيرُ راضٍ عنه ومنهم مَنْ نفى ذلك لأنّ سيارات المرسيدس التابعة للجيش كانت تصطفّ بين حين وآخر أمام القصر. لكنها سيارات علي حسن الذي ظفر بزوجة حيدر بعدما اعتزل هذا العاصمةَ والسلطة وها هو علي حسن، بعد ما صار ضابطًا كبيرًا، قد بنى له ولأهله قريةً خاصةً داخل قريته الأصلية، وضمّ الأراضي حول بيت أهله القديم، رافضًا هدمَه أو تجديدَه لقد حصل على كل شيء ولاءِ طائفته، ولمعانِ المجد، وسطوةِ الحضور. لكنّ موت حيدر يصدِّع هذا الجبروت، سواء باختفاء جثة الميت أو بحضور ابنته رهام التي عاشت في كنف أمها وفي كنف علي حسن، وحصلتْ على أوراق أبيها، واختفت كالجثة لتقرأ الأوراق قبل أن يقبض عليها رجالُ علي حسن.

لدفن حيدر حَضَرَ الشيخان الجليلان الأبرز بين رجالات الدين في الساحل السوري «وكانا عالمَيْن ومعلّمَيْن للدين، على أيديهما تربّى كبارُ رجالات المنطقة، وتعلّموا أسرارَ الدين وخفاياه.» لكنّ الميت اختفى، والروايةُ انعطفتْ إلى أوراق حيدر التي ستتخلّلها متناصّاتٌ شتى من **كليلة ودمنة** والتوحيدي و**دون كيخوته** والمكزون السنجاري والخصيبي ـ ولتراث الأخيرَيْن شأوُه العَلَويّ، وبخاصةٍ الخصيبي وقد سَرَدَ حيدر في أوراقٍ من سيرته ما يضيء نشأتَه المتمحورةَ حول التقمّص، ليتركّز ذلك في تحوّلات الرجل وقرينِه من جيلٍ إلى جيل، ومن قميصٍ إلى قميص، ومن مكة إلى الكوفة، ومن الحجّاج إلى علي حسن الذي رَوّض بلادًا بأكملها ووقف يومًا بوجه القدر وصنع مجدَه الوحيد. «إنه الواحد فقط، أبدًا لن يتكرر. ذريته كلُّها لن تَحْمل في صلبها رجلاً مثله، لأنه لن يتكرر.»

❖ ❖ ❖

تتابع رواية **صلصال** نهجَ ما سَلَفَها بالاكتفاء من مفصل الصراع بين السلطة والإخوان المسلمين (ومن تطييفه بخاصة)

التعبير الروائي في سورية عن الطائفية

بالملخّص السردي العامّ. وبينما تخطو روايةُ خليل الرزّ، **سلمون إيرلندي**،[1] خطوةً أكبرَ وأوضحَ في الفضاء الحلبي، فإنّ رواية خالد خليفة، **مديح الكراهية**، ستَهْتك الحُجُبَ عن ذلك الصراع في فضاءٍ يترامى بين حلب وتدمر وحماة والعاصمة والريف العَلَوي. لكنّ **مديح الكراهية** ستظل تسمّي المسمَّيات بغيرِ أسمائها المرجعية، ما عدا الإخوان المسلمين الذين تنتسب إليهم راويةُ الرواية منذ عهدِ المدرسة.

تتشرّب الراويةُ في الحلقة التي انتظمتْ فيها ما تحضّ عليه أميرةُ الحلقة من كراهيةِ الطوائف الأخرى، مقابلَ امتداح «طائفتنا الأقربِ إلى رسول الله » وبينما تغدو الكراهيةُ علامةً روائيةً كاشفةً، وإيقاعًا روائيّاً بامتياز، فإنّها تظلّ تُضْمر الإشارةَ إلى الطائفة الأكثرية، أي السُّنة، وإلى الطائفة العدوّةِ الحاكمةِ والأقلية، أي العَلَوية وفي عهد المدرسة، حين تبدأ الاغتيالات، تكون لزميلة الراوية ندى، التي تَلْبس بذلةَ المغاوير، قصّتُها مع ضابط من ضبّاط «سرايا الموت» (لا تخفى الإشارةُ الروائيةُ هنا إلى «سرايا الدفاع»). وها هو شقيقُ الراوية حسام يغتال جارَه الضابط الطيّار ويتخفّى، بينما كان ضابطٌ آخر قد أعدم سبعةَ عشر طالبًا في الكلية وتخفّى (والإشارة الروائية هنا هي إلى مجزرة مدرسة المدفعية)، فتقول الراوية: «لا يَعرف أحدٌ لماذا مات هؤلاء الذين انحدروا من الجبال بطموحٍ وحيويةٍ لا تُحدّ، إلاّ أنا المحتفية بالكراهية »

تعلن الراويةُ في منظّمتها استعدادَها لحمل السلاح وقتالِ الكفّار، بينما يثير جنودُ «سرايا الموت» الذعرَ في حلب. وفي المشهديات الدامية الكثيرة لتصوير الصراع، هو ذا مشهدُ اغتيال الدكتور عبد الكريم الدالي من الطائفة الأخرى، ومشهدُ تشييعه، بينما يتبرّأُ طرفا الصراع من دمه ـ وهو مَنْ كان يَصِف «سرايا الموت» والإخوان المسلمين معًا بالفصيل الطائفي النازي، ويحثّ طلاّبَه في الجامعة على رفض الطرفيْن، كما يَرْفض حمايةَ المخابرات له على أنّ إبداع المشهديات الدامية يَبْلغ أقصاه مع مجزرة السجن الصحراوي (والإشارة الروائية هنا هي إلى تدمر) التي أَمَر بها قائدُ «سرايا الموت» إثر محاولة اغتيال رئيس الجمهورية، فبدت حلب وحماة في «عيدٍ للبكاء» سيتبعه «كرنفالٌ يذكّر بطقوس مقتل الحسين »

حين تزعّمت الراويةُ حلقتَها باغَتَها شقيقُها حسام بندمه على التورّط في قتل المدنيين والأبرياء وإلى ذلك يختلف شقيقُها الأكبر والقيادي مع «الجماعة» ويفرّ إلى لندن، حيث يَنْشر مقالاتِه في نقد التجربة محمِّلاً المسؤوليةَ لطرفَي الصراع. وقد انتهى الأمرُ بالراوية إلى السجن مع أُخريات، فتذكّر تجربتُها برواية حسيبة عبد الرحمن، **الشرنقة** وبعد سنيّ الاعتقال تدرك الراوية عقمَ الكراهية الطائفية والكراهية بعامةٍ، فتواصلُ دراستَها سافرةً، وتَمْضي إلى لندن بترًا للماضي وبحثًا عن انتماءٍ جديد. وقد تقرّت الراويةُ بحذقٍ هذا التحوُّلَ على إيقاع الصراع في شخصية الراوية، شأنها مع الشخصيات الأخرى، وفي رأسها شخصيةُ «مروة» التي تتقلّب من كَسْرِ العمود الأُسَري المقدَّس إلى عشق الضابط نذير المصمودي الذي قاد حملةَ تفتيش البيت العريق و«نذير،» كأبيه الشيخ المرموق في الطائفة الأخرى (هو علويّ إذن)، ضد الطائفية وحين طلب منه قائدُ «سرايا الموت» المشاركةَ في قيادة مجزرة السجن الصحراوي، رَفَضَ، وتخلّى عن رتبته كما قُيِّدتْ مروة إلى السرير حين فشا عشقُها لنذير، فصبرتْ حتى تكلَّل العشقُ بالزواج لكأنّ الرواية تَرْسم بذلك علامةً على سبيلٍ آخر عاشتْه سوريةُ وستعيشه، سبيلٍ مُفارقٍ للسبيل الطائفي.

لقد بدت الراوية مبهَظَةً بأحمالها في النيابة عن سائر الشخصيات في سائر الأحوال، وفي قول كلِّ شيء. ولئن أَورثَ ذلك الروايةَ أحيانًا العجزَ عن الإقناع، مهما تكن وثائقيةُ المسرود ووقائعيَّتُه ومرارتُه، فقد كانت **مديح الكراهية** ملحمةَ ذلك الصراع الذي لا يُحصّن البلادَ ضد عقابيله سوى الديمقراطية

١ ـ دار الينابيع، دمشق ٢٠٠٤

«أطياف العرش» جَرَتْ مجرى أغلب الروايات المماثلة في اللاتعيين طلبًا لمراحٍ أكبر للتخييل وليس فقط للتقيّة.

V ـ المسيحية روائيّاً

كثيرةٌ هي الإشارات الروائية إلى المسيحية من بين عناصر الطائفية، كما مرّ بنا في روايتيْ **طفلة السماء** و**ثورة المخمل**. ومن اللافت هنا أنّ الروايات السورية التي عُنيتْ بالحرب الأهلية اللبنانية اختارت غالبًا أن يكون العاشقان مسيحيّاً ومسلمةً أو العكس، وأن يتتوَّجَ ذلك بالانتصار على المعوِّق الطائفي ومن أمثلة ذلك روايةُ قمر كيلاني، **بستان الكرز**،[١] وروايةُ ياسين رفاعية، **الممرّ**،[٢] ورواية أحمد يوسف داوود، **فردوس الجنون**.[٣]

بالعودة إلى الفضاء السوري، تبدو روايةُ هيفاء بيطار، **امرأة من طابقين**،[٤] التعبيرَ الأوفى والأبهى وقد انبنت من سيرتيْن سيرة الكاتبة نازك، وسيرة مخطوطتها الروائية.

في السيرة الأولى يوحِّد الحبُّ، روحًا وجسدًا، بين نازك المسيحية وصفوان المسلم. لكنّ الطريق تنقطع بهما، فتلجأ إلى الكاهن متسائلةً: لماذا لا يُمنع التزاوجُ بين الأديان؟ وفيما لا تنتظر جوابًا، تغدو هي والكاهن وجوديْن حرّيْن. لكنّ الكاهن يَجْبههما بالفروق الشخصية العميقة بينها وبين المسلم الذي تحب: البيئة، الثقافة، وبخاصة الجنس الذي هو ـ حسب الكاهن ـ نهمٌ عند المسلمين وقربانٌ عند المسيحيين، حضورٌ إلهي بين الرجل والمرأة المسيحييْن ومجردُ متعةٍ عند المسلمين.

تصارع نازك في علاقتها بصفوان حقيقةَ المؤسسة الدينية، وحقيقةَ المؤسسة الأُسَرية. في وجه الأولى ترمي بالسؤال: «لماذا يريدون سجنَنا أمام الإله؟» ولا ترى نفسها خاطئةً. وفي وجه الثانية تتحدى والديْها، اللذيْن تراهما يَخْنقان بذرةَ المعارضة فيها ويَقْضمان خصوصيَتها.

في فصل «زواج العهر» من مخطوطة نازك، تَفْصم هي العلاقةَ بصفوان، وتتزوج الطبيبَ المسيحي. نازك التي تبدأ، منذ الإكليل، بتعرية المؤسسة الزوجية، تُوالي تعريةَ المؤسستيْن الدينية والأُسرية. فقد ران وجهُ صفوان فوق وجوه القدّيسين لحظةَ الإكليل، وهزجتْ نازك بسخريةٍ جارحة: «الآن يصير الجنسُ مقدَّسًا » لكنّ هذا الجنس المقدّس ليس غيرَ «علاقةِ لحم» كما تمضي سخريةُ نازك من الزواج القائم على التفرقة الدينية وعلى الثراء. فذووها باركوا زواجَ ابنة عمها من شقيقِ وزيرٍ مسلم، لكنّهم تبرّأوا من ابنة العمّ الأخرى التي تزوجتْ مسلمًا عاديّاً. وحين يتقوّض زواجُ نازك في باريس بعد أن ضبطتْه مع صديقته الفرنسية، وتخبر صفوان، سيدوِّم صوتُه: «أنتِ فعلتِ بي كما فعل زوجُك،» وتستعيد هي من طفولتها زمالتَها لسعد المسلم الذي قال إثر تفريق درس التربية الدينية بينهما: «كنت أتمنّى أن يكون لنا إلهٌ واحد »

❖ ❖ ❖

على نحوٍ مماثلٍ تكتب روايةُ محمود سلامة، **البوح المر**،[٥] قصةَ حبٍّ بين الصحفية المسيحية المتزوّجة كاترين، والصحفي والمناضل النقابي المسلم إيّاد وقد بدأتْ قصةُ الحب بحوار العاشقيْن حول لبنان الذي كان «نموذجًا رائعًا للتعايش الطائفي والعلاقات المفتوحة بكمٍّ هائلٍ من الحضارة والمدنية والمساحة الواسعة للرأي الآخر والطائفة الأخرى » وتتفجّر أسئلةُ العاشقيْن عن إقدام إنسانٍ على قتل إنسان آخر لمجرد انتمائه إلى طائفة أخرى، وعن عجز الإيديولوجيا والأفكار القومية عن القضاء على الغول الطائفي الذي يَقْبع في الأعماق. ويواصل العاشقان المباراةَ في القَدْح الطائفي

١ ـ ٢ ـ اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٧٧

٣ ـ اتحاد الكتاب العرب، دمشق ١٩٩٦

٤ ـ مكتبة بالميرا، اللاذقية ١٩٩٩

٥ ـ دار الأهالي، دمشق ١٩٩٥

اللبناني، وفي الطائفية المكرَّسة في الدستور. لكنّ العاشقيْن، اللذيْن ستفرِّق بينهما الطائفيةُ في سورية، لا ينالان منها إلاّ في لبنان!

VI ـ خاتمة

ربما عليّ أخيرًا أن أشير إلى انشغال بعض رواياتي بالطائفية، بقدْرٍ أو آخر ففي رباعية **مدارات الشرق** حَضَرَ اليهودُ كواحد من عناصر الفسيفساء الاجتماعية، ابتداءً من عشرينيات القرن الماضي إلى مطلع خمسينياته، عبر شخصيات إستر وتفّاحة وسارة ومرزاحي والعلاقات الإنسانية والاقتصادية، وصولاً إلى تهريب اليهود السوريين من القامشلي إلى فلسطين. وفي رواية **دَرَجُ الليل دَرَج النهار**، حضرت الإيزيدية (اليزيدية) عبر شخصية «ونسة» بخاصة، ومن الحسكة وريفها إلى لالش قرب الموصل وإلى المهجر الإيزيدي في هانوفر، سواء في الأمس البعيد أو في الحاضر الذي شَهِدَ سقوطَ بغداد، وسواء في الحب أو في حرية الاعتقاد وإذا كان الحضورُ الطائفي في هذه الرواية وفي **مدارات الشرق** قد تعيَّن باليهود والدروز والعلويين، فقد جَرَتْ روايةُ **أطياف العرش** مجرى أغلب الروايات المماثلة في اللاتعيين طلبًا لمراحٍ أكبرَ للتخييل، وليس للتقيّة ـ أو على الأقل ليس **فقط** للتقية

لقد حرّضت الحربُ الأهليةُ اللبنانية على بعض الاشتغال الفكري على الطائفية؛ وهذه سانحةٌ لتحيّةِ مهدي عامل كما كانت الحالةُ السورية محرِّضًا هي أيضًا؛ وهذه سانحة لتحيّةِ برهان غليون أما الرواية في سورية، فقد كان أمرُها كما تقدّم، وهو ما جعل هذا البحثَ يرجّح التعريفَ بالمدوّنة، لأنها تعاني ما يعانيه الكتابُ العربي بعامةٍ من محدودية القراءة والانتشار، ولأنّ هذا البحث دعوةٌ إلى الإصغاء العميق لنبض الفن وتمثيلاته للنبض الاجتماعي. ولئن مال البحثُ إلى السوسيولوجي، فلأني عوّلتُ على ما سَبَقَ لي أن قدّمتُ في غير كتاب[1] عن روايات ممدوح عزّام وسمر يزبك ومحمد كامل الخطيب وأنيسة عبّود وهيفاء بيطار وحسيبة عبد الرحمن وياسين رفاعية وقمر كيلاني وحيدر حيدر، فضلاً عمّا قدمتُ في الدوريات عن روايات روزا حسن وفيصل خرتش وخالد خليفة وخلاصةُ ذلك في تلك المَواطن وفي هذا البحث أنّ الانشغال بالفسيفساء الاجتماعية أخذ يتضاعف في السنوات الأخيرة، وبجرأةٍ أكبر، مشتبكًا بالسيري حينًا، وبالسياسي دومًا، إلاّ في الحالة المسيحية، ومؤْثرًا أحيانًا الالتفافَ بالأسماء الروائية على المسمَّيات الاجتماعية، تعاليًا أو تنزُّهًا أو تقيةً، ومن النادر أن بدا ذلك فسحة أكبر للتخييل.

اللاذقية

نبيل سليمان

روائي وناقد وناشر من سورية

١ ـ **الرواية والحرب** (١٩٩٩)، **الكتابة والاستجابة** (٢٠٠٠)، **جماليات وشواغل روائية** (٢٠٠٣)، **السيرة النصية والسيرة المجتمعية** (٢٠٠٤)، **أسرار التخييل الروائي** (٢٠٠٥)